



التحيزات اللاهوتية للنقد الغربي: النقد الشكلائي نموذجاً



د. علي صديقي* - المغرب

ينفي كثير من النقاد العرب المعاصرين وجود أي صلة بين المناهج النقدية الغربية بمضامينها الفلسفية، ومرجعيتها الحلولية المادية العلمانية الكامنة وراءها. ويؤكدون، بالمقابل، أنها «كونية»، و«موضوعية»، و«إرث إنساني مشترك» لا ينبغي أن تتردد في استيرادها وتوظيفها في دراساتنا.

Derrida؛ حيث يوقع دريدا، الفيلسوف الفرنسي اليهودي، بعض دراساته باسم «الحاخام رضا» (Reb Rida)، أو «الحاخام دريسا» (Reb Dérisa) (٧). كما صرح في مقابلة له مع الناقد العربي كاظم جهاد قائلاً: «أنا يهودي جزائري» (٨)، وقد تحدث سعد البازعي عن اعتراض بعض المثقفين العرب عليه عند إلقائه محاضرة بعنوان: «المكون اليهودي في الثقافة المعاصرة»، وصف

Handelman (١)، ودافيد باكان David Bakan (٢)، وهارولد بلوم Harold Bloom (٣)، في الغرب. وصبري جرجس (٤)، وعيد الوهاب المسيري (٥)، وسعد البازعي (٦)، في العالم العربي الإسلامي. ويمكن أن نضيف إلى هذه الدراسات اعترافات كثير من النقاد الغربيين أنفسهم بصلتهم بترائهم الديني البروتستانتي المسيحي أو القَبَّالي اليهودي، أمثال هلس ملر، وإدموند جاييس، وجاك دريدا Jacques

أما نفي هؤلاء النقاد صلة هذه المناهج بالعقائد اللاهوتية - البروتستانتية المسيحية والقَبَّالية اليهودية - فهو -بدون شك- أشد وأقوى، رغم الدراسات النقدية الغربية والعربية التي تناولت هذا الموضوع، وتحدثت عن الجذور الدينية -المسيحية واليهودية- لكثير من مناهج النقد الغربي الحديث؛ وأذكر هنا على الخصوص دراسات كل من سوزان هاندلمان Susan A.



رومان جاكبسون



نورثروب فراي

سماء «الخلط اللامسؤول» بين العلوم المختلفة؛ مثل السيرة، وعلم النفس، والسياسة، والفلسفة، لدراسة الأدب^(١٠).

أما الناقد الكندي البروتستانتي نورثروب فراي Northrop Frye، الذي يعد نقده الأسطوري حلقة وصل بين النقد الجديد والنقد البنوي، فيذهب إلى أنه من الضروري، لتحقيق استقلالية النقد الأدبي وعلميته، أن تستببط

لقد كان النقد الأدبي قبل ظهور الشكلايين الروس، بداية القرن العشرين، نقدا خارجيا يعتمد معايير مستمدة من خارج النص الأدبي، ويُعنى بدراسة سيرة المؤلف، ونفسيته، ومحيطه الاجتماعي. وعندما ظهرت الشكلاية، كان من أهم المبادئ التي قررتها، هو وضع العمل الأدبي في مركز الاهتمام، ورفض كل المقاربات الخارجية، حيث أصبح موضوع ما سمي «علم الأدب» ليس هو الأدب، وإنما «الأدبية»، كما عبر عن ذلك أحد أبرز رواد هذه المدرسة رومان جاكبسون. يقول بوريس إخنباوم: «لقد اعتبرنا، ولا نزال نعتبر كشرط أساسي، أن موضوع العلم الأدبي يجب أن يكون دراسة الخصائص النوعية للموضوعات الأدبية التي تميزها

من كل مادة أخرى، وهذا باستقلال تام عن كون هذه المادة تستطيع بواسطة بعض ملامحها الثانوية، أن تعطي مبررا لاستعمالها في علوم أخرى كموضوع مساعد. إن رومان جاكبسون... هو الذي أعطى لهذه الفكرة صيغتها النهائية حين قال: إن موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب وإنما «الأدبية» أي ما يجعل من عمل ما عملا أدبيا». ورفض إخنباوم ما فيها سبينوزا باليهودي. وأساس الاعتراض هو أن هذا الوصف «نوع من التهجم على فيلسوف تجاوز انتماءه إلى اليهود أصلا»، وكأن هذه الإشارة، مجرد الإشارة، إلى يهودية سبينوزا، حسب هؤلاء، تقلل من شأنه، مع أن دراسات كثيرة صدرت في الغرب تربط سبينوزا بخلفيته اليهودية^(١١).

وهدف هذه المقالة هو الكشف عن التحيزات الدينية - البروتستانتية المسيحية - للنقد الغربي؛ بالحديث عن أثر منهج تفسير الكتاب المقدس، الذي أرسى معالمه باروخ سبينوزا Baruch Spinoza، في النقد الشكلائي الغربي.

«النقد الشكلائي ومنهج تفسير الكتاب المقدس»

ليس المقصود بالنقد الشكلائي هنا نقد الشكلايين الروس فحسب، وإن كان الشكلايون يشكلون بلا شك أهم روافد هذا النقد، بل المقصود به مجمل النقد الغربي الذي تشكل منذ بدايات القرن العشرين وإلى حدود يومنا هذا، والمعروف بالنقد «النصي»، أو «المحايت»، والذي سعى نحو دراسة الأدب من الداخل وليس من خارجه.

ليس المقصود بالنقد الشكلائي هنا نقد الشكلايين الروس فحسب، وإن كان الشكلايون يشكلون بلا شك أهم روافد هذا النقد، بل المقصود به مجمل النقد الغربي الذي تشكل منذ بدايات القرن العشرين وإلى حدود يومنا هذا، والمعروف بالنقد «النصي»، أو «المحايت»، والذي سعى نحو دراسة الأدب من الداخل وليس من خارجه.



مبادئ النقد وفرضياته من الفن نفسه الذي يتناوله النقد، وليس من أي شيء خارجه، سواء كان لاهوتا أم فلسفة أم سياسة أم علما. يقول فراي: «لا بد لبديهيات النقد وفرضياته من أن تتبع من الفن الذي يتناوله. وأول ما على الناقد الأدبي أن يفعله هو أن يقرأ الأدب، أن يقوم باستعراض استقرائي لحقله، وأن يجعل مبادئه النقدية تتشكل من معرفته بذلك الحقل،



جاك دريدا



سينوزا

فالمبادئ النقدية لا يمكن أخذها جاهزة من اللاهوت أو الفلسفة أو السياسة أو العلم أو أي مزاجية بين هذه الحقول»^(١١).

كما أن هذا المبدأ هو نفسه الذي يقرره جاك دريدا حين يلج على عدم مشروعية تجاوز النص إلى ما هو خارج عنه. يقول دريدا: «... إذا كانت القراءة لا تكتفي بأن تعيد النص وتكرره، فإنها لا تستطيع بصورة مشروعة أن تتعدى النص إلى شيء آخر مختلف عنه، إلى مرجع (واقع ميتافيزيقي، تاريخي، واقع نفسي، بيولوجي... إلخ) أو إلى مدلول خارج نص يحدث مضمونه، أو يمكن لمضمونه أن يحدث، خارج اللغة، أي بالمعنى الذي نعطيه هنا لهذه الكلمة، خارج الكتابة بوجه عام. ولهذا السبب فالاعتبارات المنهجية التي نجازف بها هنا من خلال أحد الأمثلة تعتمد بشكل وثيق على قضايا عامة قد بلورناها فيما سبق، وتعلق بغياب المرجع أو المدلول المتعالي، لا يوجد ما هو خارج النص»^(١٢).

من هنا، يمكن القول: إن الجامع بين مختلف المناهج الشكلية الحديثة وما بعد الحديثة، سواء تعلق الأمر بالشكلانية الروسية، أم بالنقد الجديد في الولايات المتحدة الأمريكية، أم بالنقد الأسطوري عند فراي، أم بالبنوية،

أم بالتفكيكية، «هو التأكيد على استقلالية الأدب عن غيره من أنواع الخطاب اللغوي، وذلك من خلال العلاقات الشكلية: الرموز، الاستعارات، إلخ. مرجعية الأدب ليست الحياة الاجتماعية أو حركة التاريخ وإنما الأدب نفسه»^(١٣).

ويربط كثير من الباحثين - العرب والغربيين-^(١٤) بين هذا النقد ومنهج تفسير الكتاب المقدس الذي أرسى معالمه سبينوزا: إذ دعا هذا الفيلسوف إلى دراسة الكتاب المقدس دراسة «علمية» باعتماد معايير مستمدة من داخل النص نفسه، معتمداً في ذلك على المبدأ البروتستانتي المعروف «الكتاب وحده»، ورفض اللجوء إلى آراء آباء الكنيسة والتراث المسيحي.

وفي هذا السياق، يؤكد سبينوزا أن طريقة سابقه في قراءة الكتاب المقدس التي اكتفت بمحاولة التوفيق بين تأملات أفلاطون وأرسطو وبين الكتاب المقدس، دون الاستناد إلى أي نظرية، هي التي جعلته يعقد العزم على إعادة فحص هذا الكتاب من جديد، بعيداً عن الأحكام المسبقة، وبحرية كاملة، ووضع «منهج جديد» للتفسير، مستمد من نصوص الكتاب المقدس نفسه. يقول سبينوزا: «لذلك عقدت العزم على أن أعيد



عبد الوهاب المسيري



د. سعد البازعي

—بحسب البازعي— «يدعم اتجاهين متعاكسين تماما، الأول يدعو إلى عقلانية صارمة وعلمية يقينية في تناول الظواهر، ومنها الظاهرة الأدبية، والآخر يدعو إلى موقف شكوكي ونسبي لا يثق بقدرة العقل ولا بمصداقية العلم أو مفهوم الحقيقة نفسه. الاتجاه الأول هو ما نجد في تيارات نقدية حديثة مثل الشكلانية الروسية بأنواعها والبنوية والتحليل النفسي الفرويدي والماركسية

من ذلك إلى استنتاج مشروع لفكر مؤلفي الكتاب»^(١٧).

ويستند هذا المنهج إلى ثلاثة مبادئ أساسية، هي: لغة أسفار الكتاب المقدس، وتجميع آيات كل سفر وتصنيفها حسب موضوعات أساسية محدودة، ثم الفحص التاريخي للكتاب. غير أن أهم هذه المبادئ وأولها، هو محاولة فهم «طبيعة وخصائص اللغة التي دونت بها أسفار الكتاب المقدس والتي اعتاد مؤلفوها التحدث بها. وبذلك يمكننا فحص كل المعاني التي يمكن أن يفيدها النص حسب الاستعمال الشائع. ولما كان جميع من قام بالتدوين؛ سواء في العهد القديم أو في العهد الجديد، عبرانيين، فلا شك أن معرفة اللغة العبرية ضرورية قبل كل شيء، لا لكي نفهم أسفار العهد القديم المكتوبة بهذه اللغة فحسب، بل لكي نفهم أيضا أسفار العهد الجديد. فهذه الأسفار الأخيرة، مع أنها قد انتشرت بلغات أخرى، إلا أنها مملوءة بالتعبيرات العبرية»^(١٨).

ويرى سعد البازعي أن هذا المنهج القائم على النقد الداخلي للنصوص قد أثر بشكل كبير في النقد الغربي الحديث لدرجة يصعب معها فهم هذا النقد دون العودة إلى سبينوزا^(١٩). وتتضح خطورة هذا التأثير أكثر إذا علمنا أن سبينوزا

من جديد فحص الكتاب المقدس بلا ادعاء وبحرية ذهنية كاملة، وألا أثبت شيئا من تعاليمه أو أقبل ما لم أتمكن من استخلاصه بوضوح تام منه. وعلى أساس هذه القاعدة الحذرة وضعت لنفسي منهجا لتفسير الكتب المقدسة. وتتمثل أهمية هذا المنهج عند سبينوزا، في قدرته على تحرير قارئ الكتاب المقدس من كل أحكام اللاهوتيين المسبقة، وجعله يميز بين ما هو «بدعة» من وضع البشر، وبين ما هو «إلهي»^(٢٠).

ويشبه هذا المنهج، الوحيد والصحيح في نظره، المنهج المتبع في تفسير الظواهر الطبيعية، فهو مثله يقوم على الملاحظة، وجمع المعطيات، والاستنتاج. وفي هذا يقول: «أخص هذا المنهج فأقول: إنه لا يختلف في شيء عن المنهج الذي نتبعه في تفسير الطبيعة، بل يتفق معه في جميع جوانبه، فكما أن منهج تفسير الطبيعة يقوم أساسا قبل كل شيء على ملاحظة الطبيعة، وجمع المعطيات اليقينية، ثم الانتهاء منها إلى تعريفات الأشياء الطبيعية، فكذلك يتحتم علينا في تفسير الكتاب أن نحصل على معرفة تاريخية مضبوطة، وبعد الحصول عليها أي على معطيات ومبادئ يقينية، يمكننا أن ننهي



التقليدية وما يتصل بها من واقعية؛ ما بعد بنوية مثل الذرائعية الجديدة؛ والتاريخانية الجديدة والتقويض

- الهوامش:
- (*) دكتوراه في الأدب العربي الحديث، المغرب.
- (١) انظر دراستها الموسومة ب: قتلة موسى، ظهور التفسير الحاخامي في النظرية الأدبية الحديثة.
- The Slaying of Moses. The Emergence of Rabbinic Interpretation In Modern Literary Theory; State University of New York Press; Albany; 1982.
- (٢) انظر كتابه: فرويد والتراث الصوفي اليهودي، ترجمة وتقديم: طلال عتريسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- (٣) يتضح اهتمام هذا الناقد الأمريكي بالتراث القبالي اليهودي في عدد من كتبه، أبرزها كتابه: القبالة والنقد الصادر عام ١٩٧٥.
- Kabbalah and Criticism. Seabnry-Press. New York. 1975.
- (٤) صبري جرجس عالم نفس مصري، له دراسة رائدة حول علاقة فرويد بالتراث اليهودي والصهيوني، عنوانها: التراث اليهودي والصهيوني في الفكر الفرويدي، صدرت عن دار عالم الكتب بالقاهرة عام ١٩٧٠. وقد أشار إليها بعض الباحثين، وفي مقدمتهم عبد الوهاب المسيري في: فقه التحيز، ضمن: إشكالية التحيز، رؤية معرفية ودعوة للاجتهد، تحرير: عبد الوهاب المسيري، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، سلسلة المنهجية الإسلامية، ٩، ط٣، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص١٠٣. وطلال
- عتريسي في كلمته التي افتتح بها ترجمته لكتاب دافيد باكان السابق الذكر، ص١٣. غير أن هذا الباحث أضاف أن جرجس قد استند في دراسته «بشكل أساسي» إلى ما جاء في كتاب باكان.
- (٥) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص٥.
- (٦) يراجع كتابه: المكون اليهودي في الحضارة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، ط١، ٢٠٠٧.
- Jacques Derrida: L'écriture et (٧) la différence; Edition du seuil. paris. 1967. p:116 & p:436.
- (٨) جاك دريدا: الكتابة والاختلاف، ترجمة: كاظم جهاد، دار توفيق، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٨، ص٥٦.
- (٩) سعد البازعي: المكون اليهودي في الحضارة الغربية، م.س، ص٢١. وقد أخبرني البازعي في رسالة إلكترونية بتاريخ: ٢٠٠٨/٠٩/٣٠، أن ناقدن عربيين بارزين كانا من بين هؤلاء المثقفين المشار إليهم أعلاه، وأنه قد فوجئ بهما وهما يحتجان على إشارته إلى يهودية سبينوزا. يقول البازعي: «... فوجئت بكليهما يحتج على إشارتي إلى سبينوزا بوصفه يهودياً، مجرد الإشارة إلى يهوديته التي لم ينكرها سبينوزا نفسه من حيث الانتماء الإثني والتي ألفت فيها الكتب الكثيرة وبعتراز شديد من قبل باحثين يهود... نعم هناك حساسية عربية «ليبرالية/تقدمية» تجاه وصف أي كاتب غربي ذي أصل يهودي بأنه كذلك، حساسية لمستها بعد إلقاء محاضرتي... وفي مناقشات كثيرة بعد ذلك.»
- (١٠) بوريس إيجنباوم: نظرية «المنهج الشكلي»، في كتاب: نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلايين الروس، ترجمة إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للنشرين المتحدتين، الرباط/مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٢، ص٣٥.
- (١١) نورثروب فراي: تشريح النقد، محاولات أربع، ترجمة: محمد عصفور، منشورات الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، الأردن، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ص٧.
- (١٢) جاك دريدا: في علم الكتابة، ترجمة وتقديم: أنور مغيث، ومنى طلبة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥، ص٣٧.
- (١٣) سعد البازعي: استقبال الآخر، الغرب في النقد العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، ط١، ٢٠٠٤، ص٥٢.
- (١٤) من أبرز الباحثين الغربيين كريستوفر نوبس، صاحب كتاب:
- Spinoza and the Origins of (١٥) Modern Critical Theory. Basil Blackwell. Oxford. 1991.
- (١٥) باروخ سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: حسن حنفي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط٤، ١٩٩٧، ص١١٧.
- (١٦) المرجع السابق، ص٢٤٢.
- (١٧) المرجع السابق، ص٢٤٢.
- (١٨) المرجع السابق، ص٢٤٤.
- (١٩) سعد البازعي: المكون اليهودي في الحضارة الغربية، م.س، ص١٥٩.
- (٢٠) المرجع السابق، ص١٦٠.